

شيطان بنتنور

«المحادثة العاشرة»

قال المدد: جار الاثر، ونجى الحجر، يتعذب فيهما الدين، ويأخذ الخبر، عن غير.
لما أصبحت أعدت أمسى في يومى كما يفعل قيسى فباشرت أشغالاً لاتنفع، وأخذت
بأعمال لا ترفع، وأكثت كأمس وشربت كالبارحة ولقيت الوجوه المألوفة
وجلست المجالس المعتادة وقرأت جرائد مشحونة الصفحات أنك ما فيها الاعلانات
إذا أنت لم تحيا الحياة كبيرة ولم تبق ذكرا في البرية خالدا

وعشت بعيد الامس في اليوم خاملا فقد عشت يومى في الحقيقة واحدا

الى أن سرى الاصيل فتقلت من شاطئ الى شاطئ، ولنظفني ضفة الى ضفة
وكنت أخذت من كلمة النسر في صرفى وما رسم له ربه من الوقوف بي على
الفسطاط والاشراف بي من معالمها واضطلاعى على مواكب دولة العرب فيها، أن
بساط الرؤيا قد انطوى فيما يتعلق بمنف والدول الاولى، وأنا قادمان على الفسطاط
مستقبلان وجوه العرب وافدان على هذه النولة التي وصف الرشيد ما كانت عليه
من انبساط الظل وامتداد النفوذ واتساع الملك والسلطان في قوله لغمامة ظللك ولم مطر،
وكان يرجو أن يستدفع الحر بمطرها، أمطرى حيث شئت كان خراجك، سوف
يجيء الى. وفي ضوء هذا الفجر سرى الاسبانىون في أيام دولتهم حيث زعموا الشمس
لاتغيب عن أملا كم ثم زالت هذه الكلمة عنهم الى الانكليز فهي آية ملكهم اليوم
ثم ترثها أمة غيرهم، سنة الله في خلقه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء

(قال) فلما صرت في منف رأيت الدهر قد جعل عاليها سافلها وصيرها كبعض
القرى ولم يبق عليها من انقاض ذلك البنيان الباذخ وبقايا تلك العمارة الكبرى الا
آثار ههنا وههنا، منها القنائم، وكان قاعدا والتقاعد وكان قائما وبعضها مشوه في أحسن
محاسنة منقوص من أطرافه أو مفقود تفتش عن مكانه لاتجده ففقدت أعجب للدهر
كيف طال على ذلك الطول وعلا فوق تلك العلياء. وأنقصى النظر فأرى قصور
الرومان موحشة مهجورة وكانت بالأمس آهلة معمورة أخنى عليها الذى أخنى على

منازل الفراغة من قبل ، وأنظر أكوخ الفلاحين نموج بنسائهم وصغارهم كيبوت
 النمل وقد سكنوا الى الدولة القائمة كما سكنوا إلى الدولة من قبلها فأقول
 في نفسى هكذا الحكماء والأفلاقلو رد أمير المؤمنين على رضى الله عنه
 لى الحياة وهو أزهده خلق الله فى الدنيا لما اخذ حقيقة الزهد إلا عن هذه الأمة .
 بينما أنا أنظر حولى بعين تعبر وأخرى تستعبر اذا صوت لئس يستسيرنى اليه فوافيته
 وكان عند قدمى رمسيس وهو من حجر وعهدته بالامس عند رأسه وهو بشر
 محتضر ، فابتدر خطابى يقول .

ما بال الهدهد يستعبر بيكيه من الايام أن تنصرف بالانام ورحاها تطحن على
 الدوام وسيهيا على رقاب الألقوام فى الحرب والسلام . أنظر يا بني إلى الحسد كيف
 حمل الأمم على الأزاراء بالقوم بعد أخذ ثارهم . والعبت فى ديارهم بعد العبت بآثارهم
 وهدم البقية الباقية من منازلهم فقاتلوا الحجر وحاربوا الأثر وسبوا التماثيل والصور
 ودخلوا على الأموات الحفر ، ولو استطاعت احداهن أن تدعى صنعا لبعض هذه
 الآثار لفعلت ولا متلات منها فارس فأتينا فروما فقد صدر عن الرومان انهم كانوا
 يستعيرون رؤوس التماثيل مما ترك اليونان الاجسام مما صنعت أيديهم وبالعكس ثم
 يوهمون أن الكل من عملهم وهذا عند ذكر السرقة غاية . أتى على شيطانى يا بني
 عشرون قرنا يجاور الآثار . ويندب على طول الديار وهى نهب بيد البلى والدمار
 فلم أعهد أن أيدى العابثين انتقضت منها وأكف الخربين انكفت عنها إلا مندهبط
 العرب أرض مصر . قلت لنظر القوم يا مولاي . قال وانهم لاهله يا بني فما حكم بين
 الناس أعدل من عمر ولا سادهم أفضل منه ولئن صدق أن فى القول شيئا من القائل
 فعمى هو الانسان الكامل حيث يقول :

« رأيت جميع البر فلم أر برا أفضل من الرحمة » . والرحمة فى اعتقادى أعلى مراتب
 الاخلاق وقد جازت بعض الانبياء فى بعض الأمر ولم تجز عمر فى شيء منه قلت انى
 إذن لسعيد يا مولاي أن أعلم من أمرهم بالمشاهدة والعيان ما أضيفه الى معرفتى فى
 التاريخ . قال لا نزال فى إجلالهم ووقارهم والاعتناء بأمرهم والنظر فيما يأتون وينزلون
 والسكون الى ظلمهم فى مصر حتى يقتلوا عثمان ويفتك المصريون منهم بالوقور فى
 الصحابة الكريم فى الأصهار والسمح فى الخلفاء الكبير فى الشيوخ فاذا فعلوا ودعنا

أيامهم ونبتنا جوارهم ووكنا الى السماء تأخذهم بدمه فتصب عليهم المصائب وتنزل
 بهم المحن وتغمسهم في الفتن وتبدلهم من الخلافة الحقبة بالملك الباطل وتردهم الى نعيم
 الدنيا الزائل

قلت لقد رضيت بما رأيت لي يا مولاي وحسبي أن أعيش يوماً واحداً في خلافة
 عمر وولاية عمر . وقال الآن تنهياً للزيارة ونستعد للخروج الى مقر الامارة فسطاط
 الأمن والعمارة ضالة عمر والتي طالما شاهدها ولم يألفها طلبا حتى وجدها

قلت أشبه الناس مسعاة يامولاي في الزمن الحاضر اللورد كتشنرحاكم السودان
 بالامس وسيف انكلترا العامل في جنوب افريقيا اليوم فقد علم الخاسر العام عن
 هذا الرجل المقدم انه نظر في أمر فتح السودان وهو ضابط ضئيل الشأن قليل المكان
 والامكان ليس له يمثل هذا الأمر العظيم يدان فجعل بعدله الصبر ويعمل له في السر
 والايام في هذه الاثناء ترفعه والسعد الى السعد يدفعه حتى انتهت اليه أمرة الجيش
 في مصر وآلت اليه السلطة العسكرية في هذا القطر وأصبح من رفعة المنصب بين رجال
 الاحتلال بحيث يسمع صوته في قومه ومن علو الكلمة في الحكومة المصرية بحيث
 لا يمانع في أمر يحاوله فثبت عندئذ وفي نفسه أمر، وتدرج فيما يحاول من السر الى الجهر
 وكاشف الحكومة الانكليزية بما يريد من فتح السودان ونشر العلم البريطاني في ارجائه
 فكانت مشيئتها ماشاء كدأها بازاء رجالها الامناء وها قد مضى على السودان عامان
 يخفق على دور الحكومة فيه الغلبان ويخفق من الحسرة عليه فؤاد (مرشان)

قال كذلك زين عمرو ولعمرفتح مصر وكذلك فتحها والتاريخ كما قيل مكررمعاد .
 وقد حدثك رمسيس عن الاقدام وذكر لك فضله وشرح لك مزاياه وهذان دليلان
 قاما عرضا في الحديث على صدق قوله وصواب رأيه وما كان رمسيس ليعرف الشوق
 ولا الصباية لولا انه كابد هما وقاسى وكان في مقدمة رجال الاقدام فان أردتم بينكم
 خيراً وضعت قلوبكم ان تتبادوا في الجناية عليهم فربوهم منذ الصغر على الاقدام فانه
 كما قال رمسيس سعادة الافراد وحياة الامم

قلت أو شك الاصيل يامولاي ان يفيض ذهبه فلو أمرت انتقلنا الى الفسطاط . قال
 تلك مقدمة لم يكن لنا شئنا غنى والآن لك أن تطير معي الى حيث الاسلام يحكم

والاخلاق تسود قلت إن أذن مولاي بدلنا هذا الزى بغيره لنأمن نظر الرماة وزجر الجماعات . قال الناس والطير وبند الحجارة ، وأوماً الى الاثار ، في كلامه رجل يتقى الله في السماء ويخاف عمرا في الارض . فلونالنا أحد في حماه بظلامه لفرغنا بالشكوى الى صاحب الامامة ولا نشدناه (جاءت سليمان الزمان حمامة)

على أنه لا بأس بتغيير اللزى فإيهما تختار القبطي أم العربي قلت الثاني يا مولاي . لانه لباس الفاتح وشعار الحاكم ينبغي . عن عز الملك ويخبر عن سناء الدولة وقد خلفت جنود الملك اذوارد في مصر يتحنى السراة لاحدهم حتى يعبر كأنه في رداء ولتتون أو مطرف نابليون وان مست طرف ثوبه يد مسها السيف

قال ليس هذا شأن عمرو وأصحابه في مصر فهم المؤمنون العزة لهم ولمن في ظلمهم بالسوا . وقد كان الرومان قبلهم كمن ذكرت من الادلال على هذه الأمة والمرح في هذه الارض على ما بينهم وبين القبط من مودة في الدين ورحمة فكان الصليب يعلو على الصليب والناقوس يخرس الناقوس والكنيسة تزرى بالكنيسة . وكان مذهب الرومان في عبادة المسيح هو الدين كله وما سواه فضرب من الهذيان يسخر من أهله ويعتدى على أصحابه وكان الامير في القبط يحكم فيه سوقة من الرومان وكانت الحكومة الكبرى في روما عمية عن هذا الظلم المبين صماء عن تظلم المصريين إلى أن قدم العرب مصر وتم لهم على الرومان النصر واطمان عمرو بالولاية وسكن أولئك البؤساء إلى حكومته السمحاء ودخلوا في الاسلام أفواجاً يحبيه اليهم تسمح العرب وحلم زعيمهم واجتماعهم على كلمة الاسلام وتساويهم فيما جاء به من الاحكام وكونه بينهم للحقيقة لا تقبل الانقسام ولا يجادل فيها الخاص فكيف العام وان سيرة (العامل) وأصحابه فيهم هي أقرب مما أراد المسيح عليه السلام من الناس أن يتساوسوا ويتصافوا ويتعاونوا أن يكونوا رحما بينهم وأبعد عما أراد القسوس بالناس منذ القدم من شعب التذهب وفتنة الانقسام والتفرق ازاء الحقيقة الباهرة . العرب في مصر بضعة آلاف وفيهم المقاتلة فكيف فتحوا ثم كيف أصلحوا ثم كيف وطدوا فيها بنيانهم وعلموا أهلها لسانهم ثم كيف استأصلوا الوثنية من هذا الوادى وزحزحوا منه النصرانية وارسوا فيها الحنيفة ، كل ذلك في أيامهم الأول بل في

حكومة ابن العاص. إذا أضفت إلى ذلك أن الدعوة إلى الاسلام لا تقوم على الحول
ولا الخيلة علمت أن العرب تعلموا حقيقته ثم علموها الناس فكانوا حينما استعمروا
من الارض فالمصباح التي يحمل النور البهي

وإذا الديانة لم يصنها أهلها خفيت خفاء النور بعد ظهور
اخفاء مصباح حواء فاسد فالذنب للمصباح لا للنور

قلت أرى الحديث فتح بعضه بعضاً يامولاي فإذا اخترت لنا من الرى. قال قد انتدبنا
يا بني للنظر والاختيار واستقراء أحوال العرب في هذه الديار فما لنا لا نتلبس بلباس
المحكوم ونتردى ثياب المؤتمر لكي ننظر بعينه وسمع بأذنيه فإن كان شقيماً بدولة القوم
تعباً يحكموهم عرفنا ذلك بالخبر لا الخبر وشفعنا له عند عمرو أو عمر وإن كان ناعماً في
ظلمهم راضى العيشة على عهدهم أخذنا بنصيب من حاله ووقفنا على حقيقة أمره.

(قال الهدهد) وبيننا نحن في الحديث لم نبرح المكان هتف هاتف بالاذن ودقت
بالناقوس يدان فلم أدر إلا ونحن على القسطاط في رى قيسين من الاقباط فضحكت
من نفسى ونجحت لاختلاف يومى وأمسى والتفت إلى النسر فرأيت يتبسم كذلك فتمثل
بهذا البيت من الشعر وهو من قصيدة لى في مديح العباس

قد بشر الناقوس بالمسلم العا دل من قبل بشير الاذان

قلت هذا ما حليت به العباس يامولاي فكيف نزعته عنه وكسوت عمرا قال
بضاعة عمر وردت اليه فلا والنفس والخلود ودين الآباء والجود، ما فتح لايوة العباس
في مصر إلا بسر هذه الراية ولا دخلوها إلا لعزوا هذه الراية على أن الشعراء كثيراً
ما يمدحون زيدا ويعنون عمراً وقد صدق صاحبنا من حيث كذب في قوله

وإن جرت الالفاظ يوماً بمدحه لغيرك انساناً فانت الذى تعنى

قلت إنك لترى باصحابك يامولاي

قال ما كانوا إلى أصحاباً وهم ينزلون بالشعر عن رتبته ويجعلونه حيث لا يرضاه
الادب لا يمدحون محمداً ولا يهجون مذمماً ولا ينظمون في الطبيعة والتاريخ اللذين هما
أم الشعر وأبوه ويخاطبون كلمة باقية وأخرى فانية
هذا صاحبك الذى سير الامثال حكماً والحكم أمثالا وجرى في الشعر إلى

الغايات فسبق السابقين وبز القائلين يقول هذه الحكمة العالمة ويرسل هذا المثل المحكم
بذا قضت الايام ما بين أهلها، مصائب قوم قد قوم فوائده . و تراها يقول بعد ذلك

نهيت من الاعمار ما لو حوبته لهنت الدنيا بأنك خالد

وما أحسن هذا الشعر وانطف هذا التصوير لو لم يتجرد فيه الشاعر من رقة القلب
ورحمة النفس وكرم الشيمة فهو يديح بمدح دماء العباد ويملكه أعمارهم وينزه بسفوح الدماء .
وسفكها ويتمنى لو بعد ذلك الانفراد بالخلد الذي كرمه أبو العلاء لنفسه حيث قال : —

ولو اني منحت الخلد وحدي لما آثرت في الخلد انفرادا

فهل هجر أبو الطيب الصناعة الى الروحانية التي هي حقيقة الشعر ورجاحة الموزون
والمراد من المنظوم والروحانية لا تقوم على مثل هذه الجفوة والقسوة والغلظة لكن
تكون بمثل ما قال في مثل هذا المقام

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عقاب

تأمل يا بني هذين البيتين وانظر كيف هدمت صناعة الاول ورفعت روحانية
الثاني وأصبح من بيت المتنبي في استباحة دماء الافراد بيته في استباحة جماجم الملوك
وجنبى قرب السلاطين مقتها وما يقتضيني من جماجم النسر

فما قتلة لارنووهميرتو واليزايت وممكنى وما اقتضتهم الفوضوية من صدور الملوك
والملكات وجنوحهم واحشائهم بأشنع ولا أفظع ولا أبغض الى السموات وما أظلمن
والارضين وما أقلن ، من نسر صاحبك .

وانى لا عجب للفوضويين كيف لم يهتدوا لهذا البيت فيتخذوه شعارهم أو
يتخذوا فيه قرارهم

(قال الهدمد) و آيت الناس يهرعون إلى صلاة المغرب فندمت على ما فاتنى من
المشاهدة والعيان في هذه الزورة الاولى وقلت للنسر قد كان لنا يا مولاي غنى عن أبى
الطيب وحديثه والنظر في طيه وخبيته . لاسيما وهذا أول أصيل قضياه على الفسطاط فأخذ
النسر من عبارتي الغضب وقال أحدثك عن شعر العرب وشاعرهم ونحن قادمون
على دولتهم في ابتدائها بمصر فتزعم اننى حدثت عن الغرض وخرجت من الموضوع
وما الشعر والبيان الا عنوان الامم يستدل به عليها . ثم ثأب النسر وقال
موعدنا غدا مجلس عمر وفما هي الا اغماة ثم اذا أنا بجوان .